آليات الحِجاج في الخطاب البلاغي
دراسة تحليلة في كتاب "سر الفصاحة " لابن سنان الخفاجي

أ.د.سعد محمد علي التميمي

الجامعة المستنصرية ــ كلية التربية

الملخص

يعد كتاب (سر الفصاحة) من اهم الكتب البلاغية التي تناوت موضوع االفصاحة ،وقد حاول ابن سنان فيه ان يقف عند أسرار الفصاحة ،ولما كان الهدف من تأليف الكتاب بيان مفهوم الفصاحة والفرق بينها وبين البلاغة والاسس التي تقوم عليها الفصاحة على مستوى الكلمة والكلام ،فقد قام منهجه على الشرخ والتفسير والمناقشة والتحليل ، وعلى الرغم أن أدوات ابن سنان كانت بلاغية وكلامية إلى حد كبير، الا أن أسلوبه غلب عليه التعليل والتفسير والحجاج ،ومن هنا جاء بحثنا هذا بعد قراءة متأنية ليتناول موضوع الحجاج وآلياته المختلفة في الخطاب البلاغي في كتاب(سر الفصاحة) متمثلة بالقياس والمماثلة والاستهلال والنظم والشرح والتفسير والاستدلال ،وقد نجح ابن سنان في توظيف هذه الآليات لاثبات نظريته في مفهوم الفصاحة وشروطها .

Summary

The book "Sir AL-Fasaha" was one of the most important rhetorical books that dealth with the subject of eloquence. Ibn Sinan AL-kafagi trried to stand at the secrets of eloquence.

Sinec the puroose of the book was to deal with the concept of eloquenceand the difference betven it and rhetoric , Ibn Sinan tools werelorgely based on explanation, interpretations discIthoughssion and analysis. Although Ibn Sinan's tools were rhetoric and theological but his style was dominated by explanation, interpretation and araguing .

Hence this research was followed by careful reading to deal with the subject of arguing and itsvarions mechanisms in the rhetorical discourse in "Sir AL-Fasaha" book through Measurement, Similarity, interpretation, explanation and deduction. Ibn Sinan succeeded in employing these mechanisms to prove his theory of eloquence concept and its conditions .

ابن سنان ووكتابه (سر الفصاحة):

تذكر المصادر أن ابن سنان الخفاجي هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ، يعود نسبه الى بني خفاجة من بني حَزْن، وهم أولاد خفاجة بن عمرو بن عقيل، وهي قبيلة عربية تنتمي إلى عدنان ،وقد ولد سنة ٤٢٣هـ في قلعة عزاز ،وهي احدى القلاع المحيطة بمدينة حلب، وكان أبوه أحد وجهاء هذه القلعة، وهو شاعر أديب وعالم ،فعرف بفكره وعقليته ومعرفته الواسعة وثقافة المتنوعة [١]،وقد أخذ العلم والأدب عن أبي العلاء المعري (٤٩٩هـ)وأبي نصرالمناري(٤٣٧ هـ) وقد انتفع كثيرا من أبي العلاء مما اثر في شخصيته [٢]، ومن مؤلفاته كتاب(سرالفصاحة)و(ديوان شعر)وقد كان ذا علم ودرايته بأسرار اللغة والفصاحة ،ولأبي العلاء المعري شهادة في اجادته في قراءة القرآن وجمال صوته ، فعندما دخل ابن سنان أول مرة على أستاذه ابي العلاء المعري سلم فرد عليه السلام وسأله عن صناعته، فقال:"أقرأ القرآن"،فقال:"اقرأ عليَّ شيئًا منه"، فقرأ عليه عشرًا، فقال له: "أنت أبو محمد الخفاجي الحلبي؟"، فقال : "نعم"، فسئل عن ذلك، فقال : عرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب، فإنني سمعت بحديثه [٣] وأشار بعض العلماء الى مكانته الشعرية ، فوصفوه بالشاعر المفلق الذي يدخل شعره الاذن بغير اذن [٤].

أما وفاته فقد توفي مسموما سنة (٤٦٦هـ) فبعد أن أتم علومه وليّ على قلعة عزاز ، لكنه سرعان ما ظهرت في نفسه نوازع الثورة واعلن العصيان على الامير محمود بن نصر رغبة منه في تحقيق الاصلاح ومحاربة الفساد كما وصف ذلك في شعره بقوله[٥]:

أستغفرُ اللهَ لا مالٌ ولا شرفُ ولا وفـاءٌ ولا ديــنٌ ولا أنفُ

كأنما نحنُ في ظلماءَ داجيةٍ فليس ترفعُ عن أبصارِنا السجفُ

الا أن الأمير لم يمهله كثيرا اذ أوعز لوزيره النحاس بأن ينفذ له مكيدة ،لما عرف عنه فمن مواقف رافضة للفساد، فدس له الوزير السم في الطعام[٦] فمات في منتصف العقد الخامس من عمره، تاركا خلفه كتابا مهما في البلاغة والنقد ، شكل عنوانه نتيجة لعدد كبير من الحجج التي يطرحها حول مفهوم الفصاحة ،مما جعلت من خطابه البلاغي في هذا الكتاب يقوم بشكل كبيرعلى الحجاج والاستدلال ، في محاولة منه لاقناع المتلقي بما يقدمه من حجج .

كتاب (سر الفصاحة):

يمثل كتاب(سر الفصاحة) من أهم كتب البلاغة، وقد أشاد به أبن الأثير(٧٣٩هـ) في معرض حديثه عن علم البيان بقوله" إن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام وقد ألف الناس فيه كتبًا، وجلبوا ذهبًا وحطبًا، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه، وعلمت غثه وسمينه، فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجيّ"[٧]،اذ عالج ابن سنان كثير من القضايا والمسائل البلاغية من أجل عرض رأيه بشأن الفرق بين البلاغة والفصاحة لذلك عد الكتاب على رأس الكتب البيانية، وهومفرد في بابه غريب في غرضه بحسب قول ابن سنان ،لأنه تضمن مناقشة الأراء المختلفة في هذا الموضوع ،فضلا عن التوسع في دراسة مقدمات هذا الموضوع ،مثل الأصوات وطبيعتها وخصائصها،واللفظ والمعنى وصولا الى النظم والنثر في محاولة لوضع قواعد من الممكن الاستناد اليها في التدريب على الكتابة والقراءة ، والفهم والتذوق لعناصر الجمال الأدبي، وقد ثضمن الكتاب آراءً رصينة في النقد والبلاغة [٨] وفنون الأدب تدل على معرفة واسعة وثقافة وفكر ورأي عميق ومنظم .

منهج ابن سنان في الكتاب :

اتسم منهج ابن سنان بالتوازن في عرض الموضوعات ومناقشتها ،وتقديم الحجج التي يمكن ان تقنع المتلقي بما يقدمه من أفكار وطروحات ،كانت في بعض الأحيان متفردة وواضحة ومقتعة،وهذا ما نجده في عرضه لمفهوم الفصاحة واختلافه عن مفهوم البلاغة ،اذ خالف فيه العلماء الذين يرون ان البلاغة والفصاحة ترجعان لمعنى واحد مثل الجاحظ[٩] ،والجرجاني[١٠] ،وابي هلال العسكري ،الذي يتفق معهما تارة ويقترب من رأي ابن سنان تارة أخرى ،اذ يرى أنّ الفصاحة تمام آلة البيان، فهى مقصورة على اللفظ ، لأنّ الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة إنّما هى إنهاء المعنى إلى القلب فكأنّها مقصورة على المعنى[١١]، ويصف ابن سنان منهجه في المقدمة بأنه متوازن بين الاختصاروالاسهاب لا يميل بالاختصارالى الاخلال ولا بالاسهاب الى الاملال[١٢] وقد حاول الخفاجي من خلال خطاب بلاغي يقوم بشكل كبير على الحجاج بآلياته المختلفة، بيان سر الفصاحة الذي جعله عنوانا للكتاب وسببا دعاه إلى تصنيفه ،فضلا عن اختلاف الناس في معنى الفصاحة والعلم بسرها ،فجاء الكتاب ليضع حدا لهذا الخلاف من خلال الحجج والبراهين التي قدمها ابن سنان بروح الشاعر وعقلية الناقد ،منطلقا من الجزئيات ، مثل الصوت والحرف والكلمة ، اذ وضع ضوابط لفصاحتها ، واستدل على ذلك بالشواهد وقاس على الضوابط المفاهيم والآراء ،وأردف الحجج التي طرحها بالشرح والتفسيرتارة

،والتحليل والحكم تارة أخرى،ولم يقصر كلامه على المفردة التي تمثل نواة الجملة والكلام ،بل شمل النظم الذي يضمها.

ويرى ابن سنان أن للفصاحة تأثير واضح في فنون الأدب المختلفة لأنها الاساس الذي يقوم عليه نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يختار منه ، اذ تتطلب هذه الامور المعرفة بها ، فضلا عن أن اعجاز القرآن يقوم على النظم الذي ينطلق منها ، ولما كان خطاب ابن سنان ذا بعد تعليمي فان الهدف التداولي كان واضحا فاضافة الى أدواته البلاغية والكلامية ، كان التعليل والتفسير والحجاج حاضرا بشكل واضح ،وقد جاء بحثنا هذا بعد قراءة متأنية لدراسة الحجاج وآلياته المختلفة في الخطاب البلاغي،في كتاب(سرالفصاحة) لابن سنان الخفاجي.

الحجاج و الخطاب البلاغي:

ان العلاقة بين الحجاج والخطاب تفاعلية تتسم بالتداخل فالخطاب بانواعه المختلفة يعد مجالا خصبا للحجاج ، فهو قناة نقل الأحداث الواقعية والتخييلية [١٣]، وهو التلفظ الذي يفترض متلقيا يكون هدفا لمنتج هذا الخطاب من أجل التأثير فيه بطريقة ما[١٤] ، والخطاب البلاغي أحد أشكال الخطاب الذي يتجسد فيها المفهوم الشَّامل للبلاغة الجديدة ، اذ يقوم على مفاهيم حجاجيَّة و جدَليَّة ، تارة وفلسفية ومنطقيَّة تارة أخرى.

وقد شكل الجدل والتواصل والحجاج على مر العصور سمة بارزة ومهيمنة في كثير من أنواع الخطاب، بل أن اللغة بحد ذاتها تقوم على الحجاج ،فلا لغة دون حجاج، وقد كان أرسطو أول من نظّر له ، وفرق بين نوعين من الحجاج:الجدلي والخطبي،والأول اشمل من الثاني، فالجدلي مجاله البحث الفكري، والخطبي توجيه الفعل وتثبيت الاعتقاد أوصنعه،[١٥] والحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة أو هو دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو تزيد من درجة التسليم بها[١٦]، وغالبا ما يقترن بالاستدلال، وقد تكرر ذكر الحجاج في القرآن بصيغ مختلفة مثل(حجج، برهن، جادل) كما في قوله تعالى(**هَا أَنْتُمْ هَـٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)**[١٧] وقد أجمع معظم المفسرين أن دلالة الحجاج هي المجادلة والمخاصمة[١٨].

ولما كان الخطاب البلاغي يهدف الى تقديم خطاب يحاول فيه اقناع المتلقي بالمصطلحات والمفاهيم البلاغية تارة و بيان القيمة البلاغية للنصوص المدروسة مثل النص القرآني والنثري والشعري ، فقد استعان صاحب الخطاب البلاغي بوسائل ترجح الرأي للتدليل على صدق الخطاب وإيقاع

التصديق، وفي هذا المستوى تلتقي البلاغة القديمة بالحجاج، لأن الإقناع يتطلب عناصر حجاجية مثل الشاهد والاستدلال والحجة، لتثبيت الرأي ،وقد تناول مفهوم الحجاج كثير من علماء البلاغة كأسلوب في تناولهم للموضوعات الأدبية، أو كهدف يتجسد في النصوص التي يتعرضون لها باشرح والتفسير والتحليل ، فالجاحظ يرى أن الغاية التي ينشدها القائل والسامع،إنما هي الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع[١٩]، وقد حاول الجاحظ أن يضع مبادئ وأسس الخطاب الإقناعي من خلال عرض الخطاب العربي وأحوال المخاطبين ،والتأكيد على أن يكون الخطاب فاعلاً[٢٠] من خلال توظيف بعض العناصر التي تحقق قصد الاقناع ، أما حازم القرطاجني فانه يعبر عن الحجاج من خلال مقابلة الأقاويل المقنعة والأقاويل المخيلة الواقعة في الشعر والخطابة،إذ "ينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة الواقعة في الشعر تابعة لأقاويل مخيلة، مؤكدة لمعانيها، ومناسبة لما قصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيلة هي العمدة،وكذلك الخطابة ينبغي أن تكون الأقاويل المخيلة الواقعة فيها تابعة لأقاويل مقنعة و مناسبة لها مؤكدة لمعانيها، وأن تكون الأقاويل المقنعة هي العمدة[٢١]،فهذه الآراء تنطلق من طبيعة البلاغة العربية التي اشتغل فيها العلماء على الخطاب الاحتمالي بنوعيه، التخييلي الشعري والتداولي الخطابي.

ان القراءة الفاحصة لكتاب (اسر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي تكشف الادوات والتقنيات الي يقوم عليها الخطاب البلاغي فيه،اذ نجد أن الحجاج والاستدلال والبرهنة سمة بارزة ومهيمنة؛ فالهدف من تأليف هذا الكتاب هو اختلاف الناس في مفهوم الفصاحة وحقيقتها ،لذلك جاء الخطاب البلاغي لابن سنان حجاجيا رغبة في الوصول الى الهدف المتمثل في اثبات ان الفصاحة هي الظهور والبيان و"الفرق بينها وبين البلاغة أنها مقصورة على وصف الألفاظ ،أما البلاغة فلا تكون الا وصفا للألفاظ مع المعاني فلا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وان قيل فيها فصيحة وكل كلام بليغ فصيح وليس كل كلام فصيح بليغ" [٢٢] ، فابن سنان يعلل هنا الفرق بين البلاغة والفصاحة ويقدم الحجج التي تكون نتيجتها التفريق بين المصطلحين ،ان الكلمة التي توصف بالفصيحة لا يمكن ان توصف بالبليغة ، ويقوم الحجاج في الخطاب البلاغي في كتاب(سر الفصاحة)على مجموعة من الآليات مثل الاستدلال الذهني والشرح والتفسير و التعريف، والوصف، وسرد الوقائع، فضلا عن المماثلة، والمقارنة،والاستشهاد والتمثيل، والاستقراء، والقياس، ، والهدف، والسبب والنتيجة، فضلا عن توظيف الأدلة المنطقية، الواقع والتجربة، وأدلة الاستشهاد والتضمين والاقتباس، وأدلة المقايسة والمماثلة ،كما يقوم الحجاج على آليات أخرى منها؛ الاستهلال، والنظم

والمقارنة،والتفريع ،والتعليل،والتأويل، والاقناع، وقد كانت هذه الآليات وسائل الغاية منها بيان مفهوم الفصاحة

الاستهلال من الحجاج الى الاقناع:

إن الاستهلال لا يقتصر على الشعر والخطابة بل يشمل جميع أنواع الخطاب ، ويقول عنه بعض العلماء: "أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات؛ فإنهن دلائل البيان"[٢٣] إذ كان النقاد قديما قد تناولوه في القصيدة والخطبة ووضعوا له شروطا خاصة ،والاستهلال ركيزة أساسية في البعد التداولي للخطاب فهو عملية استباقية تجيب عما يغلُب أن يدور بذهن المتلقي ففيه تنطلق الشرارة الأولى للحجاج ، ويغلب على لغة الاستهلال الأسلوب المكثف الذي يقوم على التشويق ، وهو مما يسميه أهل البيان حسنَ الابتداء ، وبراعةَ الاستهلال، فحسن الابتداء هو أن يُتأنق في أول الكلام ؛ لأنه أول ما يقرع السمع ، فإن كان محرَّراً أقبل السامع على الكلام ووعاه ، وإلا أعرض عنه ولو كان الباقي في نهاية الحسن أما براعة الاستهلال فهو أخص من حسن الابتداء،وهوأن يشتمل أولُّ الكلام على ما يناسب الحال المتكلَّم فيه، ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله[٢٤]أي أن تشير في صدر المقال إلى مقصده،وتمثل عتبة العنوان(سر الفصاحة)اول توظيف للاستهلال، إذ يتكون العنوان من كلمتين: الأولى(سر) التي تشير إلى الغموض واختلاف الناس ، والثانية (الفصاحة) التي الوضوح والبيان ،وابن سنان في توظيفه للاستهلال في خطابه أقرب إلى الحِجاج التوجيهي الذي يقوم على إثبات الدليل على الدعوى، بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، وهو فعل إيصال المستدل حجته إلى غيره ؛ فينشغل المستدل بأقواله، ولا ينشغل بشكل مماثل ورد فعله عليها ، فتجده يولي أقصى عنايته إلى قصده وأفعاله المصاحبة لأقواله الخاصة ،غير أن اقتصار اهتمامه على هذا القصد والأفعال الذاتية ، يفضي إلى تناسي الجانب العلاقي من الاستدلال، الذي يصله بالمخاطب مما يجعل الأخير متمتعا بحق الاعتراض[٢٥]، وقد جاءت مقدمة الكتاب لتشكل بنية استهل فيها ابن سنان عرض الفكرة التي يقوم عليها الكتاب اذ يذكرأن ما دعاه إلى تصنيف كتابه اختلاف الناس في معنى الفصاحة وحقيقتها،فأراد أن يضع حدًا لهذا الخلاف بأن ضمن كتابه هذا "طرفًا من شأنها وجملة من بيانها"، وقال "اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها"إذ يؤكد ابن سنان الحاجة الماسة إلى هذا الكتاب الذي وصفه بل مفرد في بابه والغريب في غرضه وتتجسد الحاجة في قوله (العلم بسرها) والضمير هنا يعود على الفصاحة ،فهو يرد على من يجعل من الفصاحة ووالبلاغة مفهوما واحدا ، وهذا الاستهلال الذي قدمه ابن سنان في المقدمة يعطي فكرة عما سيتناوله في المتن ، فضلا عن ذلك فهو يعرض من خلاله الهدف من الكتاب ليشير الى الآراء التي تجانب الحقيقة

التي يعتقد بها ، ليحقق التواصل مع المتلقي وينجز الهدف المقصود ، ولم يقتصر الاستهلال،على ما ذكره ابن سنان في مقدمة الكتاب بل شمل فصول الكتاب الاخرى، ففي كل فصل يستهل الكلام بالدلالة اللغوية وعرض الآراء ومناقشتها ،ثم الصيغة الصرفية للمصطلح ، وبعدا الخوض في مفهوم المصطلح ،كما هو الحال في فصل الأصوات وفصل الحروف اذ يقول في استهلال فصل الاصوات"الصوت مصدر صات الشيء يَصُوت صوتاًفهو صائتوصوّت تصويتا فهو مصوّت وهو عام لا يختص ، يقال: صوت الانسان وصوت الحمار "[٢٦]، فهو يستهل كلامه هنا بالخطوط العامة للصوت قبل الخوض بالتفاصيل الاخرى مثل كيفية ادراكة وكيفية نطقه وصفاته التي ستكون مادة تستند عليه الفصاحة في مدلولها ، يضاف الى ذلك فان ابن سنان جعل كل فصل بمثابة استهلال للفصل الذي يليه ، مما جعل بناء الخطاب تراكميا يبدأ من الجزء ثم الكل فالصوت استهلال للحرف والحرف استهلال للكلام والكلام استهلال للغة وهكذا، وهذا الاستهلال ذو بعد حجاجي فهناك علاقة وثيقة بين هذا الاستهلال وهو ما تضمنته مقدمة الكتاب ،وبين متن الكتاب الذي يقوم على التفصيل بفكرة الفصاحة ،وتأتي القيمة الحجاجية للاستهلال من قوته التأثيرية وقدرته الفائقة على جذب انتباه المتلقي،إذ يشكل الطليعة الدالة على ما بعدها،[٢٧] فضلا عن أنه يحتوي لحظتين لحظة الاستهواء والاستمالة ، وذلك بحسب طبيعة القضية المطروحة ولحظة الإعلان عن التقسيم المتبنى، والتخطيط المتبع [٢٨]،ولم يقتصر الاستهلال على العنوان والمقدمة والفصول الاولى ،بل تعدى ذلك لفصول الكتاب نفسها ؛ فقد بدأ الكاتب كل فصل باستهلال يرسم فيه أبعاد ما يتناوله في الفصل من قضايا، ففي الفصل الذي خصصه فقبل الخوض في قضية الاعجاز استهل كلامه بسرد مواضع الاعجاز ليضمن انتباه المتلقي وتفاعله مع ما يطرحه من حجج متتالية تصب في هدف واحد، فالاستهلال أصبح وسيلة لاقناع المخاطب بما يطرحه من أفكار .

الحجاج بالقياس والمماثلة والمقارنة:

القياس هو رد الشيء إلى نظيره،أو هو" قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر"[٢٩]،وهو من الوسائل الأصولية والفلسفية ، ويعرف أيضا بالاستدلال الكلامي أو القياس بالمماثلة لأنه يقوم على المماثلة ، ويعد من الوسائل الحجاجية المهمة التي وظفها الأصوليون والفلاسفة ،فهو فعالية استدلالية مؤثرة[٣٠] ، وقد وظف ابن سنان القياس بشكل كبير في عرضه للمفاهيم البلاغية وتحليله للنصوص الادبية من أجل اقناع المخاطب بما يطرحه من موضوعات تخص الفصاحة بشكل عام وأثرها في في فنون الادب ، ومن ذلك كلامه حقيقة المتكلم " ان المتكلم من وقع الكلام الذي بينا

حقيقته، بحسب أحواله من قصده وارادته واعتقاده ، وغير ذلك من الامور الراجعة اليه حقيقة أو تقديرا، والذي يدل على ذلك أن اهل اللغة متى علموا أواعتقدوا وقوع الكلام بحسب أحوال أحدنا ،وصفوه بأنه متكلم ، ومتى لم يعلموا ذلك أو يعتقدوه لم يصفوه، فيجري هذا الوصف في معناه ، مجرى وصفهم لأحدنا بأنه ضارب ومحرك ومسكن وما أشبه ذلك من الافعال "[٣١]، فابن سنان يوضح هنا في فصل الكلام دلالة كلمة (المتكلم) بعد أن أنهى كلامه عن الكلام ، فهو يرى انها تطلق على من يطلق الكلام بارادته واعتقاده وقصديته ،ولاقناع المتلقي بهذا الرأي يوظف القياس اذ يشبه المتكلم بحسب رأيه بالضارب والمحرك والمسكن ، كون هذه الافعال تتطلب ارادة واعتقاد وقصد، ثم يستطرد في توضيح هذه الدلالة لذلك يستبعد وصف النائم والمصروع بالمتكلم،فالخطاب هنا يقوم على القياس والتمثيل من أجل تقريب الفكرة للمتلقي واقناعه بها .

ويأتي القياس عند ابن سنان مقترنا بالمماثلة والمناظرة أو المقارنة ، خاصة إذا ما عرفنا أن منهجه في الكتاب قائم على اقناع المتلقي بما يطرحه من آراء ، ففي كلامه عن الفرق بين التشبيه والاستعارة يعتمد فرضية السؤال والجواب التي تتكرر بشكل كبير في خطابه رغبة منه في التشويق ،فيقول" وإن قال قائل : ما الفرق بين الاستعارة والتشبيه إذا كان الأمر على ما ذكرتم ؟ قيل : الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن ، وهو أن التشبيه على أصله لم يغير عنه في الاستعمال ، وليس كذلك الاستعارة ، لأن مخرج الاستعارة مخرج ليست العبارة له في أصل اللغة ، وقد حدها أبو الحسن علي بن عيسى الرماني فقال : هي تعليق العبارة على غير ما وضعت في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة وتفسير هذه الجملة أن قوله عزوجل:(**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**)[٣٢]استعارة لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب ، فلما نقل إليه بأن المعنى لما اكتسبه من التشبيه ، لأن الشيب لما كان يأخذ بالرأس ويسعى فيه شيئا فشيئا حتى يحيله إلى غير لونه الأول ،كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب وتسري حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة ،فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان على أن الرماني قال في كلامه :إن التشبيه في الكلام بأداة التشبيه، وهويعني : كأن والكاف وما جرى مجراهما، وليس يقع الفرق عندي بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط لأن التشبيه قد يرد بغير الألفاظ الموضوعة له ويكون حسنا مختارا،ولا يعده أحد في جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه"[٣٣]،فابن سنان يلجأ للمقارنة بين التشبيه والاستعارة لبيان الفرق الحقيقي بينهما ، اذ يرفض الرأي الذي ينص على ان الفرق محصور باداة التشبيه ويؤكد أن التشبيه قد يكون بدون أداة ،ويستشهد ببيت شعري يخلو التشبيه من الاداة ، ثم يلحق هذا الرأي أو الحكم بالتعليل الحجاجي من خلال الأدوات

الخاصة بذلك مثل (أنما ، لأن، لو)، ويستمر بعد ذلك بشرح الفكرة ويفصل بجزئياتها ، وينهي شرحه وتعليله بالاستدلال على رأيه بقول الشاعر:

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

فهنا تشبيه محض وليس باستعارة ، وإن لم يكن فيهما لفظ من ألفاظ التشبيه، فالخطاب البلاغي هنا يقوم على تقديم الحجج التي تؤدي الى النتائج الي يقصدها ابن سنان، المتمثلة في اقناع المتلقي بما يقدمه من افكار موظفا القياس المقارنة والقياس لتحقيق هذا الهدف ، وان كان غير ملزم وفائدة القياس في الخطاب الحجاجي تكمن في أن من يوظفه لا يصدر حكما من عنده ، بل يمدد حكم الأصل إلى الفرع إثباتا أو نفيا اعتمادا على ما يجده من شبه بينهما مما يبررالقياس[٣٤]،فضلا عن أن القياس آلية حجاجية يستطيع المتكلم من خلالها إقناع المخالفين ،وقد أصبح للخطاب البلاغي لابن سنان بعد حجاجي سهل عملية الإقناع والتأثير من خلال القاعدة التي اعتمدها لتثبيت مفهوم الفصاحة ،التي تقوم على الآتي:

الفصاحة هي الوضوح والبيان ----------
مختصة باللفظ ١- ليس كل كلام فصيح بليغ
٢- البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى حال الظاهر مع فصاحته ---------- مختصة باللفظ والمعنى كل كلام بليغ فصيح

فهذه القاعدة التي تقوم على الاستدلال تمثل حقيقة ثابة وعامة ،اعتمدها ابن سنان في خطابه البلاغي في كتاب (سر الفصاحة) مما جعله يصبح خطابا حجاجيا بامتياز رغبة منه في تحقيق الاهداف المرسومة في كتابه .

الحجاج بالشرح والتفسير والتفريع :

التفسير هو الكشف والإيضاح[٣٥]، ويعد التفسير والشرح من أدوات الحجاج لما له من تأثير في المخاطب، فالمؤلف عندما يطرح موضوعا يتضمن اشكالية ما ، ويريد انجازه واقناع المخاطب به فانه يلجأ الى التفسير والشرح من أجل توضيح أبعاد هذا الموضوع وشرح دلالته ، وذلك من خلال التعريف بالمفاهيم ووصفها فضلا عن المقارنة بين الآراء المختلفة من أجل تحقيق الهدف المنشود من التفسير، وبذلك يكون التفسير والشرح من الآليات المهمة للحجاج،وقد استعمل ابن سنان التفسير والشرح بشكل كبير في كتابه(سرالفصاحة) للكشف عن الأفكار التي يطرحها وإيضاحها،وتفسير

الإيضاح هو إرداف معنى فيه إبهام ما بمعنى مماثل له،إلا أنه أوضح منه[٣٦] ،والتفسير مقوم من مقومات الإقناع لأن المتكلم يحتاج لإقناع الآخرين بفكرة ما ، فيقوم بشرحها وتوضيحها ليقربها إلى عقل متلقيه ومن ثم يغريه بقبولها وتصديقها والملاحظ على خطاب ابن سنان أنه يميل إلى الإقناع المنطقي من خلال الحجاج بالتعليل والتفسير والمقارنة ، ومع التفسير والشرح هذا نجد أيضا التفريع الذي وظفه الكاتب بشكل مدروس، فبعد الظفر بالحجج والتفكير في مكونات الخطاب لا بد من التفكير في ترتيب تلك الحجج ، ووضع كل واحدة في المكان المناسب لها، فيزيدها ذلك قوة ويجعلها مؤثرة في ذهن المخاطَب [٣٧] ، ولما كان الحجاج سمة مهيمنة في خطاب ابن سنان ، فإننا نجد أنفسنا أمام نص تواصلي تحليلي غايته التأثير بالإقناع تبعا لمقصدية المنشئ فالحجاج هو" إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج اللغوية و بعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها[٣٨]، فاخطاب البلاغي في كتاب(سر الفصاحة) هو عبارعن حجج ونتائج يقدمها المؤلف من خلال الشرح والتقسير أحيانا،كما هوالحال في بدايات الفصول ففي معرض كلامه عن التناقض في التشبيه عند بعض الشعراء ، شرح الفرق بين المستحيل والممتنع في التشبيه فيقول " وقد فرق بين المستحيل والممتنع بأن المستحيل هو الذي لا يمكن وجوده ولا تصوره في الوهم مثل كون الشيء أسود أبيض وطالعا نازلا ، فان هذا لايمكن وجوده ولا تصوره في الوخم ، والممتنع هو الذي يمكن تصوره في الوهم وان كان لا يمكن وجوده مثل أن يتصورتركيب بعض أعضاء الحيوان من نوع في نوع آخر كما يتصور أسد في جسم انسان "[٣٩] ، فهذ الشرح ينطلق من التفريع ،فهو يرتب كلامه من خلال تتابع الفصول ،ثم يرتب االموضوعات داخل الفصل والافكار داخل الموضوعات ، اذ يتحدث عن صحة التقسيم ،ويحذر من التناقض في التشبيه ،ثم يبين صحة التشبيه والعلاقة بين المشبه والمشبه به .

ويخصص ابن سنان فصلا للحديث عن النظم والشعر والفرق بينهما ، والمفاضلة بينهما، اذ يوكد ان الفرق بينهما يرجع للوزن والقافية ، ويذكرأن هناك من يفضل الشعر على النثر، أما هو فيفضل النثر على الشعر، ويسرد الحجج التي تؤيد ذلك متخذا من آلية المقارنة بين الشعر والنظم سبيلا لعرض حججه فيقول " اما الذي نقوله من تفضيل النثر على النظم فهو أن النثر يعلم فيه أمور لا تعلم في النظم ، كالمعرفة بالمخاطبات وبنية الكتب والعهود .... وان الحاجة الى صناعة الكتابة ماسة والانتفاع بها في الغراض ظاهر والشعر فضل يستغنى عنه ولا تقود ضرورة اليه "[٤٠]، اذ يذكر هنا اكثر من حجة تؤيد افضلية النثر على النظم ، كما انه يذكر بالمقابل حججا اخرى تعضد افضلية النثر وتراجع النظم أمامه ،فالنثر الحاجة ماسة اليه والنظم بالمقابل يمكن الاستغناء عنه ، وهذا الشرح الذ

يتخلله التفسير والمقارنة والتفريع من شأنه أن يجعل الخطاب البلاغي لابن سنان يمتلك قدرة حجاجية عالية .

الاستشهاد والاستدلال من المعرفة إلى الاقناع:

يعد الاستشهاد من الآليات المهمة التي يقوم عليها الحجاج لنقل الفكرة من سياقها العام المطلق الى سياق خاص لاقناع الآخر،ويكون الاستشهاد على شكل تضمين أو اقتباسُ وذلك " أن يُضَمَّنَ الكلامُ شيئاً من القرآن أو الحديث،لا على أنّه منه"[٤١] و يعد الاستشهاد استدعاء لقول يمارس من خلاله المتكلم سلطة معرفية على المتلقي للاستدلال على مايريد اثباته من حقائق،و دعم آرائه لإقناع المتلقي والتأثير فيه ، وهو يعد من الحجج القوية الجاهزة التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية ، ليعضد ما يطرحه من حجج وأفكار، " والشاهد عند أرسطو بمثابة القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء ، أما في الخطابة العربية فهي تضمين الآيات القرآنية والأحاديث وأبيات الشعر والأمثال والحكم ، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها"[٤٢]، فمن خلال الاستدلال بالشواهد المختلفة يمارس المتكلم سلطته المعرفية على المخاطب بغية الوصول للنتيجة المطلوبة .

وقد كان الاستشهاد أداة واضحة في الخطاب البلاغي في كتاب(سر الفصاحة) وشكل آليةً حجاجيةً حقق من خلالها المؤلف الهدف الاساسي الذي قام عليه الكتاب وهو طرح مفهوم الفصاحة والرد على الاراء التي تخالف هذا المفهوم فضلا عن تحليل عدد من الشواهد القرآنية والشعرية والنثرية وبيان مواضع الحسن والقبح فيها،ومناقشة بعض الآراء التي يختلف معهم ابن سنان في الذائقة أو التوجيه أو التحليل، فضلا عن هدف آخر حاول المؤلف معالجته تمثل في عرض مفاهيم البلاغة وآراء العلماء فيها كون هذه المفاهيم لها علاقة وثيقة بموضوع الكتاب ، ولما كان استحضار المخاطَب يمنح المؤلف قدرة في اختيارالاسلوب المناسب فضلا عن الآلية المؤثرة ،لذلك نجد ابن سنان يستحضر مخاطَبين اثنين أحدهما: متسائل يرغب في فهم الحقيقة ، فيميل اسلوب الخطاب الي الشرح والتعليل والاستدلال ليبدأ بعملية البناء على وفق أسس منطقية ، وآخر مخالف ورافض لما يطرحه ابن سنان، فيميل الأسلوب نحو الهدم، ثم البناء يفند الآراء وهذا ما يعد هدما في ستراتيجيات الخطاب الحجاجي يتبعه عملية البناء المتمثلة في اقناع الآخر، من خلال استعراض الاسس التي قامت عليها، وتقديم الشواهد التي تؤكد ذلك ،ثم يلجأ ابن سنان في بعض الاحيان للتهكم والسخرية من الآخر وذلك من خلال القياس والمقارنة والمماثلة ،وقد تنوعت الاستشهادات لتشمل آيات قرآنية

وأحاديث نبوية وخطباً للصحابة وأمثالاً وأشعاراً مختلفة ،ومن الاستشهادات القرآنية التي يوظفها ابن سنان في حجاجه قوله تعالى(**الرحمن** علم القرآن **خلق الإنسان علمه البيان)**[٤٣]،اذ وكد انه على كثرة من اشاروا الى شرف الفصاحة وعظم قد البيان والبلاغة الا ان الله قرن ذلك بخلقهم فجعله مضافاالى المنة بخروجهم من العدم الى الوجودومن جانب النفي الى الاثبات[٤٤] ،فهو يتخذ من قوله تعالى دليلا عى شرف الفصاحة ليضمن اقتناع المتلقي بما يطرحه ،وقد ضمن المصداقية من خلال الاستدلال بالقرآن ، وفي معرض كلامه عن الفصاحة يستشهد بحديث للنبي (ص):(أنا افصح العرب بيد اني من قريش)[٤٥]، ليكون حجة على رأيه بمفهوم الفصاحة التي تقوم على الوضوح والبيان ، ويسرد عدد من الشواهد الشعرية ايضا من أجل تحقيق القصد مما حقق قوة اضافية للحجاج ضمنت اقناع المخاطب بما وصل اليه من استنتاجات،فابن سنان أراد في خطابه البلاغي الحجاجي الوصول الى نتيجة جعلها عنوان كتابه وهي سر الفصاحة ، وقد حقق ذلك من خلال توظيف آلية التفريع والتدرج بالأسباب للوصول الى هذه النتيجة ، فالفصاحة تعد ركيزة اساسية لا يمكن ان يستغني عنها الخطاب الذي يراد أن يوصف بالبليغ ،وهذا ما نخرج به عند قراءتنا لكتاب سر الفصاحة .

لقد كانت غايتنا في هذا البحث الوقوف عند البعد الحجاجي للخطاب البلاغي لابن سنان في كتابه (سر الفصاحة) من خلال بيان طريقة عمل آلية الحجاج الوقوف في بعدها التداولي الذي طبع أسلوب ابن سنان الخفاجي، وقد جاء ذلك بعد قراءة سياقية ايماناً منا بأن الخطاب البلاغي وان كان حجاجيا ، الا انه لم يبتعد عن التراث البلاغي العربي بمفاهيمه التي غلبت على نتاج العلماء.

الهوامش

[١] الأعلام للزركلي ج١٢٢/٤، فوات الوفيات، ج٢/٢٢٠-٢٢١-، ديوان ابن سنان الخفاجي،ص١٢

[٢] ينظر: فوات الوفيات ج٢/٢٢٠، وللتعريف بأبي نصر المنازي ينظر:الأعلام للزركلي ج٢٣٧/١.

[٣] ينظر: ديوان ابن سنان ص:١٤-١٥

[٤] ينظر: الأنساب للسمعاني ١٧٠/٥، ديوان ابن سنان الخفاجي ص:٢٣.

[٥] ديوان ابن سنان الخفاجي

[٦] ينظر : فوات الوفيات ج٢/٢٢٠ ،

[٧] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :ابن الاثير ،ج١ ص٢٣

[٨] ينظر : البيان العربي ، بدوي طبانة ، ص٩٤

[٩] ينظر: البيان ١ ص ١١٥.

[١٠] ينظر : دلائل الإعجاز ، ص ٣٥.

[١١] ينظر : كتاب الصناعتين ، ص ٧.

[١٢] ينظر : سر الفصاحة ص:٣٩

[١٣] ينظر:خطاب الحكاية،جيران جينيت،ت محمد معتصم،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط٣ ،٢٠٠٣ ،ص٣٨

[١٤] ينظر:انشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة ،محمحد الباردي،مركز النشر الجامعي،تونس،٢٠٠٤ ،ص١ .

[١٥] ينظر: الخطابة، أرسطو ،ت عبد الرحمن بدوي ،دار القلم، بيروت ،١٩٧٩ ، ص٩

[١٦] اللغة والحجاج ،ابو بكر العزاوي،مطبعة العمدة،الدار البيضاء ،ط١ ،٢٠٠٦ ،ص١٦.

[١٧] سورة آل عمران : ٦٦

[١٨] ينظر: الكشاف،الزمخشري،داراحياء التراث ،بيروت،ط٢ ٢٠٠١،ج١ ص٣٩٨،والجامع لأحكام القرآن للقرطبي،وتفسير القرآن العظيم،لابن كثير .

[١٩] البيان والتبيين ،الجاحظ، ت عبد السلام هارون ،مطبعة الخانجي مصر،ط٧ ،١٩٩٨ ،ج١ ،ص٦٩

[٢٠] ينظر: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري، إفريقيا الشرق، البيضاء، ٢٠٠٧، ص ٣٩.

[٢١] ينظر : منهاج البلغاء ،حازم القرطاجني،ت الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب،: تونس ،٢٠٠٨ ،،ص٣٦٢

[٢٢] سر الفصاحة ،ابن سنان الخفاجي ص٦٠

[٢٣] الجامع الكبيرفي صناعة المنظوم،ابن الاثير،ت:د.مصطفى جواد ود.جميل سعيد،منشورات المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٥٦،ص١٨٧ .

[٢٤] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ج١، ص ٢٨٣-٢٨٤

[٢٥] ينظر:اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،طه عبد الرحمن،ط١المركز الثقافي العربي،بيروت ، ١٩٩٨ص ٢٢٧

[٢٦] سر الفصاحة ،ابن سنان ،ص٢٥

منهاج البلغاء القرطاجني ،ص ٣٠٩ [٢٧]

[٢٨]في بلاغة الحجاج الإقناعي ، محمد العمري، افريقا الشرق ،الدار البيضاء ،بيروت ،ط٢ ،٢٠٠٠ ،ص ١٣٠

ينظر: التعريفات ،الشريف الجرجاني،ت محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة ، القاهرة ،ص١٥٢ [٢٩]

: ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ،طه عبد الرحمن ،المركز الثقافي العربي، دار،المغرب ،ص٩٨ . [٣٠]

[٣١] سر الفصاحة ،ابن سنان،ص٤٤

[٣٢] سورة مريم :٤

[٣٣] سر الفصاحة ،ابن سنان ،١١٨ص

[٣٤] ينظر بنية العقل العربي ، محمد عابد الجابري ،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت،٢٠٠٤ ،ص١٣٩

[٣٥] التعريفات ،الجرجاني، ص٥٧

[٣٦]ينظر: منهاج البلغاء ،حازم القرطاجني، ص٣٠٩

[٣٧] ينظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية ، حمادي صمود وآخرون،جامعة الآداب والفنون،تونس،١٩٩٨ ص١٥

[٣٨] اللغة و الحجاج ، أبو بكر العزاوي. مطبعة الأحمدية. الدار البيضاء،٢٠٠٦.ص١٠

[٣٩]سر الفصاحة ابن سنان ،ص ٢٤٣

[٤٠]سر الفصاحة ابن سنان ،ص ٢٨٧

[٤١] الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣ ،ص١٣

[٤٢] في بلاغة الخطاب الاقناعي، محمد العمري، ص٦٥

[٤٣] سورة الرحمن :١-٤

[٤٤] سر الفصاحة ابن سنان ص٦٠

[٤٥]سر الفصاحة ،ابن سنان ،ص٥٨

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم

ـ الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١،١٩٩٦ .

ـ الأعلام ،للزركلي ، دار العلم للملايين ،بيروت .

ـ الانساب ، السمعاني،ت عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد،**ط١ ،١٩٦٢**

ـ انشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة ،محمحد الباردي،مركز النشر الجامعي،تونس،٢٠٠٤.

ـ إلانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ت: محمد زاهد الكوثري مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط ٢ ،١٩٦٣ .

ـ أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود وآخرون،،جامعة الآداب والفنون،تونس،١٩٩٨.

ـ الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣ .

ـ البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، محمد العمري، إفريقيا الشرق، البيضاء، ٢٠٠٧.

ـ بنية العقل العربي ، محمد عابد الجابري ،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت،٢٠٠٤ .

ـ البيان العربي ، بدوي طبانة، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ،ط٢

ـ البيان والتبيين ،الجاحظ، ت عبد السلام هارون ،مطبعة الخانجي مصر،ط٧ ،١٩٩٨ .

ـ تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي،ت ،مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط١ ١٤١٧هـ.

ـ التعريفات ،الشريف الجرجاني،ت محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة ، القاهرة .

ـ الجامع الكبيرفي صناعة المنظوم من الكلام المنثور،ابن الاثيرالجزري،ت: د.مصطفى جواد و د.جميل سعيد، منشورات المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٥٦،

ـ خطاب الحكاية،جيران جينيت،ت محمد معتصم،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط٣ ،٢٠٠٣.

ـ الخطابة، أرسطو ،ت عبد الرحمن بدوي ،دار القلم، بيروت ،١٩٧٩.

ـــ دلائل الاعجاز ، الجرجاني ،ت محمود شاكر،دار المدني ،جدة ،ط٣ ،١٩٩٢

ـــ ديوان ابن سنان الخفاجي ،ت مختار الاحمدي ، مطبعة المجمع العلمي ،دمشق ،٢٠٠٧

ـــ سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،ط١ ،١٩٨٢ .

فوات الوفيات ،محمد الكتبي ،ت د.احسان عباس ،دار صادر بيروت . ـــ

ـــ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ،طه عبد الرحمن ،المركز الثقافي العربي، دارالمغرب .

ـــ في بلاغة الخطاب الاقناعي، محمد العمري، افريقا الشرق ،الدار البيضاء ،بيروت ،ط٢ ،٢٠٠٠.

ـ كتاب الصناعتين ،ابو هلال العسكري ،ت علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الفكر العربي ،بيروت ،ط٢

ـــ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ١٩٩٨.

ـــ اللغة والحجاج ،ابو بكر العزاوي،مطبعة العمدة،الدار البيضاء ،ط١ ،٢٠٠٦ ،ص١٦.

ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،ابن الاثير ،ت أحمد الحوفي ،دار نهضة مصر ،القاهرة

ـــ منهاج البلغاء ،حازم القرطاجني،ت الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب،: تونس ،٢٠٠٨ .